الهدف

بقلم

سعيد صبحي الصفاني

جلس محمود يرقب ابنه الصغير الذي لم يتجاوز السابعة ، وهو يدب على الارض امامه بحذائه الجديد .. يسير مختالا .. ثم يقفز قفزة في الهواء .. ليعود ويجلس على الارض ، يخلع حذاءه ويأخذ في تقليبه بين يديه ، وعلامات الفرح والبهجة تشع من وجهه الطفولي البريء .. بينما انهمك شقيقه الاصغر في ارتداء البنطلون الجديد ، وامارات الاهتمام بادية على وجهه وقد انعزل تماما عما يجري حوله .

وكان محمود سعيدا في هذا اليوم ، فقد قبض الارباح بالأمس .. ونزل لتوه الى السوق .. فاشترى كسوة للأولاد .. ولم ينس نفسه هو وزوجته .. فاشترى بنطلونا صوفيا .. وحذاء جديدا .. ولزوجته فستانا للخروج وآخر للبيت .. ولامه طرحة وحلقيا أسود وزاد من سعادته عندما سدد جميع ديونه .. واحرس الاموال التي لم تكف عن ادلاله لحظة .

وعندما أخبر الرئيس عن حكاية الارباح .. لم يصدق انه سيقبضها بهذه السرعة .. بل وبهذه الكمية ..

لقد قبض ثلاثين جنيها .. أخذها من الصراف ثلاث ورقات حمراوات . في ظرف ابيض عليه اسم المصنع .. وطار الى البيت ليحدث فيه فرحة هستيرية .. عفرت امراته في الهواء .. وهي الزوجة العاقلة .. لكنها كانت كمن يتعرض لضغط هائل .. ثم رفع عنه الضغط فجأة .. ضغط الشقاء والحرمان المذل للكرامة ..

أما والدته .. فقد حمدت الله وصلت ركعتين شكرا له ..

وتقافز الأولاد حوله ، وهو ممسك بالنقود في يده ، يلوح بها في الهواء . وكأنه يطرد بها هدوءا مجهولا .. كان كل منهم يحاول أن يسبق الآخر الى ادخار ايه ليهمس له بما تشتهيه نفسه ..

ولم ينم ليلتها .. ولم ينم أي فرد من العائلة .. فالمبلغ كبير .. بل هو اكبر مبلغ امسكه في حياته دفعة واحدة .. واوقعه هذا في حيرة كبيرة .. انها

ثروة حلت فى وقتها .. كيف ينفقها ؟ وفى اى السبل ؟

واستمع وهو شارد الى العديد من الاقتراحات ..

تجيب دولاب وسرير .. تصبنا فى راديو يا بابا .. ياحوبا تسدد الدين اللى علينا الأول .. دا يوم السداد عيد .. تجيب كسوة للعيال .. دى هدومهم رى الكناسة ..

واستمر النقاش طول الليل .. وهو جالس يفكر .. ويفكر .. وامرأته تفكر معه .. حتى استقرا اخيرا على سداد ديونهما أولا ..

وجرى الى صاحب البيت .. يدفع له شهرين متأخرين .. وخرج من عنده مرفوع الراس .. وشعور بالكرامة يملأه ويفيض عليه .

ثم ذهب الى عم حسين البقال ودفع له جنيهين وبضعة قروش .. طالما اذله الرجل الخبيث بها .

وبعدها .. ذهب الى البيت .. وهو يشعر بانه قد تخفف من حمل ثقيل كان يوشك ان يرهق انفاسه .. او ما بقى منها ..

واخذ زوجته معه الى السوق .. لتشتريا كسوة الاولاد .. ودخلا محلات كثيرة .. وطافا باخرى اكثر .. يتنقلون بينها فى نشوة وسعادة .. وعندما رجعا الى البيت .. محملين بالصناديق واللفائف .. هجم عليهما الاولاد وتخاطفوا اللفائف وهم يصرخون بلهفة وشوق .. ويتجاذبون ويتصايحون فى فرح وسعادة .. حتى اصبح البيت هيصة .. أو شيء اشبه بالمولد ..

وجلس هو وزوجته .. ومعهما القليل الذى اشتريا لانفسهما .. يرقبان الاولاد فى رضا وارتياح .. وبسمات السعادة ترفرف على الشفاه .. ولم تجد زوجته شيئا تعبر به عن سعادتها سوى كلمات قليلة تمتمت بها .

ـ حقه يابو محمد .. مين كان يصدق ربنا فضله واسع ..

واطرق زوجها مؤمنا على كلامها .. نعم .. ان الله فضله واسع واوسع مما يتصور المؤمنون المخلصون .

نقلة كثيرة بالمحمود بين ماكنته وما انته عليه الآن .

لكم تمنى أن يرى وجه أشرف «بك» بعد تأميم المصنع . لقد بلغه انه اصيب بالشلل . وبعضهم قال انه اطلق بجره من ثروته وهرب الى الخارج .. فى منفى داهيه .

لم ير اى عامل منه انصافا فى يوم من الايام . بل كانت كل ايامه سوداء كشعرات شاربه المصبوغ . الذى كان يرتعش ويهتز كلما غضب . وما اكثر ما كان يغضب .

المصنع انلم . هكذا صاحوا جميعا فى صبيحة اليوم التالى للتاميم وهم يدخلون من باب المصنع . تتحدهم الفرحة . ويحدوهم الامل فى مستقبل أقل اظلاما من ذلك الذى رسمه لهم هذا الرجل الاستغلالى الحشيع .

ياســـلام يا جدعان .. مين كان يصدق ..

قالها صديقه عبد المولى وهو يمصمص شفتيه ويهز رأسه وكأنه لا يصدق ماحدث .

عنده حق عبد المولى ، فلم يكن يخطر بباله أو ببال واحدمن يقاسمونه الشقاء الذى يصبه على رؤوسهم هذا الرجل .. ان هذا الصبح الضخم الذى قام عسل اكتافهم ، ونهش لحمهم ، وصبح صحتهم سيطير من يد صاحبه ليصبح ملـــكا خالصا لهم

أحدع حاجة فى الدنيا الارباح دى

قالها عم سليمان وهويستلم نصيبه فى الارباح مزيد الصراف داخل مظروف أبيض .. مثل مظروفه الذى استلمه .

الله يحاربك يا عم ســليمان ، انت لا تنسى الخدعة حتى فى الارباح ، لقد كنت دائما تشاغب صاحب المصنع .. وكان يخاف منك رغم كبر حجمك . دور لك المكائد فرددتها اليه ، وحاول اهانتك امام العمال فجعلت منه أضحوكه ، حتى اضطر الى ان يتملقك ويتقرب اليك .

كيف فعلت هذا ياعم سليمان . كان جميع العمال يتساءلون فيما بينهم عن سر صمودك أمام هذا الطاغية الذى كان يخلو له ان يقف أمام العمال ويصيح فيهم بصوته الجهورى .

ـ ظل فى الحكومة . أنا ما بهمنيش حد .

الحكومة أخذت المصنع واعطته للعمال وهرب هو .. او أصيب بالشلل ..

لايهم .. المهم أنه دخل عنا بمصنعيته ، وصلفه المعروف ، ووجهه الاغبر .

ونظر محمود الى وجـــه أمه المشرق بالفرحة .. فرحة الفرج .. واستجابة دعواتها التى كانت تصعدها الى السماء فى اصرار مؤمن لايعرف معنى لليأس والضعوط .

وابتسمت له وكأنها تقول .. تحقق دعائى وجاء الفرج .

الفرج .. هذه الكلمة البسيطة كانت الباب السحرى الذى خرجت منه جميع همومه ومتاعبه ليخلص الى الأبد من ذل الحاجة والعوز .

وضحك محمود وهو يرقب طفلته فى محاولتها السـاذجة وهى تلف قطعـــة قماش على جسدها الصغير فى هيئـــه فستان ، فتقع على الارض .. ولكنهـــا تنهض بسرعة لتكرر المحـــاولة من جديد .

جميلة هذه البنت .. لطيفـــة .. ياحسارتها فى الفقر .. ان أمها تسميها (السنيوره) . ولكن أى سنيوره .

عنده من الاولاد خمسة .. كلهم قطط صغيرة ، ليس فيهم ولد كبير يساعـده ويحمل عنه جزءا من همومه .. لامعين الا الله وحده .. هو العالم بالحال .. والحال يغنى عن السؤال كما يقولون .

لكن الحمد لله على أى حال .. لقد مررت بأيام أسود من شعر رأسك .. وقاست نفسك المعذبة من الشقاء الوانا واشكالا لا أول لها ولا آخر .

ـ الف حمد وشـــكر يابنى .. يامما

قلتلك .. فرجه قريب .. واللي يخلق عبده ما ينساه .

نعم ياامي .. لم ينسنا الله . ولم نمت من الجوع .. ولم يشرد العيال لكم كان المستقبل الغامض يؤرقني . وسيف الطرد في اية لحظة مسلط على رقبتي يدلس ويسليني آدميتي . ويجعل مني حيوانا مذعورا .. لايعرف عن غده شيء ، ولا يرجو ان يعرف .

وتذكر ركلة أشرف بيه له فيمؤخرته وهو واقف يعمل امام احدى الآلات .. لقد كادت الركلة أن تدفعه بين تروس الآلة . ومع ذلك لم يستطع أن يفتح فمه حتى بالاحتجاج ، فقد كان اولاده ثلاثة في ذلك الحين ، ولو تجرأ واحتج ، لما وجد هؤلاء الاطفال قوت يومهم ، ولماتوا جوعا ، واضطر يومها أن يكظم غيظه ، وضغط اعصابه ويبتسم في وجهه المرتعش بالغضب .

وجلجلت ضحكة زوجته في أذنه .. ورآها وهي تقلب في حجرها قماش فستانها الجديد فمن حمور .. ووجهها معي بالفرحة .

كم قاسيت معي ياحسان . . وكم تعذبت .. لم أسمع منك هذه الضحكة منذ زمن . لقد نلاشت ضحكاتك الرنانة وضاعت في صراخ اول طفل انجبناه ولم أسمع منك يومها حتى الشكوى .. كنت صابرة .. راضية بما قسمه الله لنا من مصير ، ترممين حياتنا في صمت واناة .. وتعطينا من عطفك وحنانك زادا يعيننا على احتمال ما نحن فيه من بلاء .. اصيله والله يا احسان .. وبنت ناس صحيح .

وعاد محمود يجيل بصره في الغرفة ..

كانت الغرفة قد جمدت .. وعم المكان صمت عميق .. وتكون الاطفال بحولد اللفائف في سكون وعيونهم الواسعة البريئة تحملق في الفضاء ، وكأنها تهيم في احلام طفولية سعيدة .. تستشف بهجتها من واقع اللحظة التي يعيشونها .

ونامت امه وهي جالسة فوق الحصير بينما اسندت زوجته رأسها على كفها وسرحت في عالم آخر .

وابتسم محمود .. ابتسم في رضا وسعادة .. وشعر بالزهو . . وهو الرجل القادر على اسعاد من يحب ، فلم يعد الان ذلك الزوج العاجز .. يرى الحرمان في بيته ولا يملك في صدد ذلك شيئا .

الوضع تغير الآن .. تغير كثيرا عن زمان .. والخير يحل محل الحرمان . . والسعادة تطرد الشقاء .. والغرفة في العيون تشع بالبهجة والامل .

ونهض مقتربا من زوجته . وقال لها وهو يضرب بيده على معدته برفق

ـ الواحد جاع .. حضري العشا .

ونظرت اليه كأنها لم تسمع ما قاله ، وغمغمت في صوت منخفض

ـ كنا اشترينا دولاب .. ولا سرير يسع العيال .

وابتسم محمود وهو يجيبها

ـ السنة الجاية ان شاء الله . الحمد لله اللي كسينا نفسنا ، والعيال العلابه

فقالت له في شرود

ـ الستر ستر يامحمود .. ربنا يديم علينا .

وقامت لتحضر العشاء .